



حَوْلِيَّةُ كَلِمَةِ الْبَنَاتِ بِجَامِعَةِ عَيْنِ شَمْسٍ

العدد التاسع

مطبعة جامعة عين شمس
١٩٧٧

● الأستاذة الدكتورة ومزية الغريب
● الأستاذ الدكتور علي الحديدي

[رئيس التحرير]
[سكرتير التحرير]

المحتويات

صفحة

- ١ - قضايا أدبية
للاستاذ الدكتور على الحيدى ١
- ٢ - تجربة شاعر (دراسة لفن بشار)
للدكتور مصطفى الصاوى الجوينى ٣١
- ٣ - (من التراث اللغوى) فائت الفصيح لآبى عمر الزاهد
للدكتور عبد العزيز مطر ٥٣
- ٤ - شعراء اليهود فى الجاهلية وصدر الاسلام
للدكتور أحمد محمد النجار ١١٢
- ٥ - أضواء على بعض نظريات النمو
للدكتورة عنايات يوسف زكى ١٦٧
- ٦ - تطوير التعليم وبناء مجتمعنا الجديد
للدكتورة نازلى صالح احمد ١٨٣
- ٧ - المشكلات التعليمية لتلاميذ الصف الثالث بالمدسة الثانوية
وعلاقتها بالتحصيل المدرسى
للدكتور سعد يى زكى والدكتور فؤاد سليمان قلادة ١٩١
- ٨ - استخدام برامج التليفزيون التعليمية فى المدارس الثانوية
للدكتور سعد يى زكى ٢٤٥
- ٩ - بعض المواقف السلوكية الصعبة التى يواجهها أطفال الحضانة
والمدسة الابتدائية كما يراها الآباء
للدكتور حامد عبد العزيز الفقى ٢٧١

قضايا أدبية

للدكتور على الحديدي

(١) الاسلام بعث جديد للأدب العربي .

في العصر الجاهلي كانت الأمة العربية أمة شعر ، لها حياتها السياسية والاجتماعية والعقائدية الخاصة تعتمد فيها على العاطفة والشعور أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق . وتندفع بهذا الشعور إلى الحكم في قضاياها الخاصة أو العامة أو المصيرية من حرب أو سلم أو تقاليد وعادات وعبادات وغير ذلك من نواحي الجاهلية .

وقد يكون ذلك نتيجة طبيعية للحياة البدوية التي كانت في ذلك الزمن البعيد قائمة على العصبية القبلية في أغاب نواحي الجزيرة . والعصبية القبلية في ذلك المجتمع كانت ضرورة حتمتها طبيعة الحياة الصحراوية لحنظ كيان الفرد والعشيرة .

والعرب قبل الإسلام لم يكونوا شديدي الاتصال بغيرهم من الشعوب ، ولم تكن رحاة الشتاء والصيف أو الاتصال بالغساسنة والمناذرة أو الوفادة على الملوك المجاورين إلا اتصالات فردية ، لم يكن لها التأثير الكبير الذي يحدث عادة من اتصال الأمم واحتكاك العقليات فتؤثر وتتأثر اجتماعياً وعقلياً وحضارياً . حتى اليهود الذين فروا من الرومان إلى داخل الجزيرة أو النصارى الذين وفدوا إليها ودعوا بعض القبائل إلى اعتناق دينهم لم يكن لهم تأثير يذكر في العرب ، وأكثر من ذلك أنهم اتبعوا التقاليد العربية وساروا على النهج العربي فيما عدا الدين . ومن ثم ظلت الأمة العربية قبل الإسلام على حالتها القبلية كما كانت في أعماق التاريخ ، وكأنها ضربت سوراً من العزلة عن العالم من حولها .

في ظل هذه العزلة لم تتأثر الأمة العربية في جاهليتها بالحضارات المجاورة لها من الفرس والروم ، ونتيجة للعزلة كانت لغتها العربية أقرب اللهجات التي تفرعت عن اللغة السامية الأم . وفي ظل هذه الروابط الاجتماعية القبلية كان الشاعر لسان القبيلة التي توفر له العناية الداخلية والأمن الخارجي .

ويدل التراث الجاهلي على أن المجتمع العربي آنذاك حدد للشعر مهمته وهو التعبير عن الجماعة ، كما حدد للشاعر مكانته حين وكل إليه القيادة الإعلامية والمعنوية للقبيلة . لأن الشعر كان سلاحاً من أخطر الأسلحة في حياة تنتصر فيها القوة ويتحكم فيها الغالب . والنتيجة الطبيعية لذلك كله أن يكون الشعر في جملة وفي روحه وغايته شعر جماعة لا شعر فرد في أكثر الأحيان .

وليس معنى ذلك أن المجتمع كان يلقي ذاته ويفقده شخصيته وانفعاله الخاص ذلك لأن أكثر الشعراء كانوا من قادة الرأي في الجماعة فهم حين يعبرون إنما يعبرون عن رأي اشتركوا في إصداره وتدبيره . فذاتية لا تظهر منعزلة عن جماعته ، مثله مثل وزير الإعلام في عصرنا الحديث يصنع السياسة مع الوزراء ثم يخرج ليعلن على الناس القرارات والبيانات . وظيفته في القبيلة وظيفته عامة لا تهدر ذاتيته لأنه من صانعي الرأي الذي يعلنه للناس في قصائده . وتحكم القبيلة في أفرادها ومنهم الشاعر لا يلقي ذاتيته بل يجعلها فردية جماعية ويخضع الفرد للأكثرية ، وهي ما تسمى في عصرنا بالديمقراطية ، ومن ناحية أخرى نجد القبيلة وهي تلزم الفرد بأن يخضع لقراراتها تلتزم هي من جانبها بحماية هذا الفرد وتهب لنجدة إذا مسه الضر دون أن يسأله تفسيراً كما يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً
والعرب أنفسهم كانوا يحسون بهذا الاندماج بين الذاتية والجماعية ويعبر عنها الشاعر حريث بن مخنف المازني فيقول :

ألم تر قومي أن دعاهم أخوهم أجابوا وإن يغضب على القوم يغضبوا
همُ حفظوا غيبي كما كنت حافظاً لقومي أخرى مثلها إن تغيبوا
ومع ذلك فقد عرفنا أن هناك من الشعراء من خرج على القبيلة ورأي الجماعة
ثأراً ومنافراً كالشعراء الصعاليك ، تنافرت ذاتياتهم مع تحكم الجماعة فثأروا من

القبيلة أو نحاتهم قبائلهم . ومنهم من خرج على حكم الجماعة لأنه رأى العواطف قد دفعت بقومه إلى طريق الفناء ، فحكم عقله ودعا إلى طريق المعاشة السلمية بدلاً من الحرب ، كما فعل زهير مع أخواله الديانين حين خرج على رأى جماعتهم وهو التماهى فى الأخذ بالتأثر والترامى على الحرب ترامى الفرائش على النار ، ودعاهم إلى السلم والسلام مع العبيسين . ثم أخذ فى تبشيع الحرب أمام قومه ودعا هرما بن سنان والحارث بن عوف إلى السعى فى الصالح ثم مدحهما حين أفلحا ونحملا الديات : وقصبلته التى خرج بها عن حكم الجماعة معروفة ومشهورة ويقول فيها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المـ جسم
متى تبعوها تبعوها ذميمــــــــــــــــة وتضر إذا أضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفــــــــــــــــا وتلقح كشافاً ثم تحمل فتشم

كذلك كان الشعر فى الحياة الجاهلية من ناحية مهمته الإعلامية ، وقيمه المادية عند القبيلة ، واعتزازها به وبرواية شعر شعرائها وإذاعته بين القبائل وحرصها على أن تلقنه صغارها ، وتردده فى المحافل والجامع ، وتذهب به إلى الأسواق العامة لتسمعه الوفود المحتشدة من كل صوب وحذب . وكذلك كان اعتزازها بشاعرها الذى ينبغ فيها فتتقبل التهانى فيه ، وتحرص عليه وتحميه لأنه ثرات وقوة وسلاح لها .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن الشعر فى المجتمع العربى الجاهلى كان ديوانهم الذى يحرصون على روايته وحفظه ، وعلمهم الذى لم يكن لهم علم أصح منه . الناس مشغولون به فى حلهم وترحالهم يروونه أئى رحلوا أو أقاموا لما له من أثر السحر فى نفوسهم ، ولقدرته على استثارة عواطفهم ، ويرددونه فى محافلهم وفى حروبهم . ومن هذه الناحية يبدو الشعر وكأنه يمر بحركة ازدهار تصل به إلى المكافحة المرموقة .

والحق أننا لو نظرنا إلى الشعر من هذه الزاوية ، زاوية أهميته ومكانته بين القبائل وذبوعه بين الناس وتردادهم له وحرصهم على روايته وحفظه ، قلنا مع القائلين إن الشعر فى العصر الجاهلى كان فى أوج ازدهاره . ولكننا لو نظرنا إليه من زوايا أخرى ، وهى معانيه وفنيته ، لوجدنا الحكم عليه قد يختلف كثيراً .

فالسطحية التي تتميز بها الشاعر الجاهلي في معالجة الموضوعات جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه أو يتحدث عنه ، فهو لا يعرف التغافل في أعماق النفس البشرية ولا في أعماق الأمور الحسية . و تنضح هذه التزعة في خيالاته وتشبيهاته التي ينتزعها من عالم المادى ولا يتعداه . وظلت الحسية والمادية هي المنبع الذي يستقى منه الشعراء أحياتهم ، ومهما ترامى العالم الحسى من حولهم فهو عالم محدود . وحين حصروا أنفسهم فيه ضاقت عليهم المعاني فلم يتوسعوا فيها ، وداروا حولها حتى أوشكت أن تكون هي بعينها عند كل شاعر ، وكأنما اتفقوا عليها . أو كأنهم يسرون في جادتها لا يحيدون عنها . فأسنان المرأة تشبه عند أكثر الشعراء بالأقحوان وبنائها بالعم ، والرجل يشبهونه بالبحر والأسد وما يقوله ابن خزّام في بكاء الديار وينقله عنه أمرؤ القيس يسير على نمطه كل الشعراء وكل حماس لا يتعدى ما قاله عمرو بن كلثوم ، وما قاله طرفة في الناقة صار نبراساً يكرره الشعراء وكذلك في الأغراض الأخرى التي تناولها الشعراء لم يخرجوا فيها عن المعاني والأخيلة والتشبيهات الحسية التي يدور في فلكها الشعراء جميعاً .

من كل ذلك يمكن أن نقول إن نزعة المحاكاة والتقليد والتكرار وضحت عند الشعراء في السنوات الأخيرة قبل الإسلام . ضاقت عاينهم الأفق في معانيهم ، وأخذ الشعر ينزل في مستواه الفني على الرغم من البراعة الواضحة في إعادة المعنى بصياغة وشكل جديدة أو في التوليد والاستنباط من المعنى الأصلي فيخرج في صور طريفة .

وكان هناك عامل آخر ساعد في إحكام الحلقة المقفلة على الشعر الجاهلي في معانية ، ذلك هو عزلة العرب حضارياً وفكرياً وأدبياً واجتماعياً عن الشعوب المجاورة لهم من الفرس والرومان والسيريان ، وإذا نظرنا إلى الآداب في محيطها العالمى نجد أن كل أدب يسور نفسه بسور يعزله عن الآداب المعاصرة له ولا تنفذ إليه أفكار الآخرين ، ولا يطعم بالتجاهات الآداب الأخرى ، ولا يحتم بدم جديد من الفكر والثقافة فسأله إلى الانحطاط ومرده إلى الركود أو الزوال .

وأقرب شيء إلينا هو الأدب الفرعوني القديم (وخاصة فن القصة والدراما فيه) فقد ظل الأدب الوحيد لا يختلط بغيره أو يتفاعل بأفكار جديدة من أمم أخرى ، فانقرض وزال . وكذلك حدث مع كثير من آداب الأمم الأخرى القديمة . ذلك

أن الأدب كالبحيرة العذبة إذا تبركت زمناً أصابها العطن وصارت آسنة راكدة؛
أما إذا اتصلت بروافد أو منابع تأتيا بماء عذب جديد بقيت متجددة تطفئ العطش
وتمنح الحياة . وبعزلة العرب عن الأمم الأخرى تعرضت بحيرة الأدب عندهم
إلى الركود وانحدرت قيمة الفنية ، ونزلت عن مستواها الأول .

وعنتره العبسي كان أول من أحس من شعراء الجاهلية بهذا الخطر الفني على
الشعر ، وبأن الشعراء يدورون في حلقة مقفلة من المعاني والألفاظ نتيجة استعمالهم
للحسيات وعزلتهم عن العالم ، فأصبحوا يجترون أنفسهم ولا يأتون بجديد بعد أن استنفد
السابقون المعاني واستهلكوا الأخيلة والصور ، وقد عبر عنتره عن إحساسه هذا
كمخاطرة سريعة بدأ بها معلقته حين قال : «هل غادر الشعراء من متردم؟» ثم مال بث
أن تركها إلى تردد ما قاله السابقون قبله من بكاء الأطلال والدمع في معلقته .
وكأنه أطلق هذه المخاطرة أملاً في أن تجد من يقف عندها وقفة المستبصر
فيفجرها قضية كبرى .

وظل استفهام عنتره لا يجد جواباً على الرغم من الفيض الزاخر من المعنويات
والروحانيات التي امتلأ بها الشعر العربي في العصور التالية حتى جاء شاعر النهضة
العربية الحديثة محمود سامي البارودي فأجاب عنتره معارضاً مطلع معلقته بقوله :

كم غادر الشعراء من متردم ولرب تال بسز شأو مقسدم
في كل عصر عبقرى لا ينبي يفرى الفرى بكل قول محكم (١)

وكان إحساس عنتره إحساساً غير واضح المعالم ، ولذلك مس القضية مساً
خفيفاً ، ووضعها متسائلاً ، وترك الإجابة عليها لمن يتأمل ويستقصي . وكان زهير
ابن أبي سلمي هو ذلك المتأمل ، ففجر القضية وألقى عليها الأضواء وأعلنها صريحة على
الملأ يثهم الشعر والشعراء في هذه الآونة بأنهم في مرحلة حرجة من الناحية الفنية
لأنهم يجترون أنفسهم ويكررون ما يقولون ، وذلك في قوله :

ماأرانا نقول إلا معاراً أو معسداً من قولنا مكروراً

وإذا قال ذلك زهير « فالقول مقال حزام » . ذلك أننا عرفنا في زهير
الشفافية والبرى والحكمة ، حتى كان عمر بن الخطاب يعجب من شعر الحكمة

(١) لا ينبي : لا يزال . يفرى الفرى : يخلق الخلق الجديد . انظر باقى القصيدة
في كتاب محمود سامي البارودي للدكتور على الحديدى ط ٢ القاهرة ١٩٧٠ م .

عنده ويتعجب من حكمه على الأمور ، ويقول « لو أدركته لوليت القضاة لحسن معرفته ودقة حكمه »^(١). فحكم زهير على الشعراء بأنهم يدورون في حلقة مغلقة من المعاني المسبوق إليها والمعادة المكرورة حكم يثبتك به خبير ، ذلك لأنه فوق شفافيته وحكمته كان شاعراً من طراز ممتاز ، خبير صناعة الشعر وعرف أساليبها وتمرس بنماذج أوس بن حجر وغيره من فحول الجاهلية ، وذاع صيته فالتسمه الشعراء يتعلمون الشعر على يديه ، فنيغ منهم الخطيئة وولداه يجير وكعب . وفي الخصائص لابن جني^(٢) ، وفي البيان والتبيين للمجاط^(٣) وغيرهما من أمهات الكتب الأدبية نجد الكثير مما قيل عن هذا الشاعر الفحل الصادق الحكم في الحياة والشعر . ولكن لعل خير ما قيل فيه وفي حكمه على الشعر قول عمر بن الخطاب : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاقل في الكلام ، وكان يتجنب حوشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه »^(٤) و قول الخطيئة : « خير الشعر الحولى المحكك » ويتصد زهيراً أستاذه في الشعر وحولياته ، وقول الأصمى : « زهير بن أبي سلمى والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر . وكذلك كل من جود في شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة »^(٥).

ومن ذلك وغيره مما قيل في زهير يمكننا القول بأنه كان شاعراً فحلاً وناقداً نافذ البصيرة . وأكثر من ذلك أنه بلغ بمقدرته الفنية في النقد أن وصل وهو يعيش في القرن السادس الميلادي إلى مبدأ من مبادئ النقد الأساسية عند النقاد الكلاسيكيين في عصر النهضة ، وذلك أن الأدب يتحكم فيه العقل ، وأن العقل يرادف الذوق والحكم السليمين . فالكلاسيكيون ، كما يقول ناقداهم الأكبر وواضع أسسهم النظرية « بوالو » في مطولته المسماه « فن الشعر » ، يؤمنون بأن العقل هو الوسيلة الفعالة التي يرجع إليها الأديب ، ومن الواضح أن العقل الذي يرجعون إليه ليس العقل الموضوعي المنطقي البارد ، بل العقل الحساس القادر على الانفعال بما يؤمن به من رأى . ومن الواضح أن الاعتماد على العقل المنفعل في النتائج الأدبي مرتبط أوثق الارتباط

(١) انظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ط الحلبي ص ٣٤٢

(٢) ج ١ ص ٣٢٤

(٣) ج ٢ ص ١٤

(٤) الأغاني ج ١٠ ص ٢٨٩

(٥) الأصمعيات ج ٢ ص ١٣

بطابع الاتزان ، فالعقل قلما ينساب إلى الشطط والإسراف^(١) . وما أشبه ما قاله « بوالو » بما قاله الجاحظ في « البيان والتبيين » تعليقاً على صنعة زهير في الشعر وبصيرته في نقده : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريئاً وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقاب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زمناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره إشفافاً على أدبه وإحرازاً لا خوله الله من نعمته »^(٢) .

ولعل في ذلك ما يؤكد أن زهيراً حين قال قوله المعروفة :

ما أَرانا نقول إلا معــاراً أو معاداً من قولنا مكــروراً

لم يكن يقولها عفواً خاطر ولم يلقيها على عواهنها ، بل قالها ببصيرة الناقد وحكم المستبصر من الفن الذي أجاده كشاعر وعرفه كناقد .

لا بد من أن نسلم إذن بعد الأدلة السابقة ومن واقع الشعر العربي في أواخر العصر الجاهلي بأن هذا الفن الأدبي كان يسير بخطى واسعة نحو مرحلة النكسة والانحطاط . وكان لابد لبحيرة الشعر التي أوشك ماؤها أن يأسن ويصاب بالركود والعطن من نبع جديد يزود الجسد الذي أصابه الحرمان والركود بدم فيه عناصر القوة اتدب فيه الحياة ويندفع في شرايينه الشباب فيملاً السمع والفؤاد .

وكان الشعر العربي ذا حظ موفور ، فقد قبض الله له بظهور الإسلام فيضاً من الفكر الجديد والقيم السامية والمعاني التي لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وسرى في شرايينه دم قديم من معين مقدس بعث فيه الفتوة والشباب ، واستحدث فيه ألفاظاً وتراكيب وصوراً لم تكن معروفة ، ومعاني دينية وروحية لم تكن معاومة ، واتسع أفق هذا الفن الأدبي ، فن الشعر ، سعة لم يكن للمتقدمين عهد بها ، فقد كسر الإسلام سور العزلة الذي ضرب على عرب الجاهلية ، وحطم حلقة المحسوسات الضيقة المقفلة التي كانوا يدورون في داخلها ، ومنحتهم الثورة الإسلامية فيضاً من المعنويات سواء في

(١) انظر الكلاسيكية للدكتور محمد مندور ص ١٥ — ١٨ .

(٢) انظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٦

قيم الإسلام الروحية التي بينت للناس أنه دين البشر أجمعين ، وأنه الحلقة الأخيرة المكتملة في سلسلة الديانات السماوية والمتمم لما نقص منها « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، وأنه دين العقيدة والعمل ، يؤمن بإله واحد ليس كمثل شيء . وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ويطالب البشر بالإيمان بعالم ما وراء الطبيعة ، وما فيه من مخلوقات نعرفها سمعاً ولا نراها عياناً منها الملائكة والجن والشياطين ، وباليوم الآخر الذي يبعث فيه كل إنسان ليقيم حساباً على ما كسب واكتسب عدلاً منه سبحانه ، فمن عمل صالحاً فأنفسه ومن أساء فعليها . ثم رسم للناس طريق الانصال بالله وتطهير النفس بالعبادات ، وحدد لهم معالم السلوك والأخلاق ، وحرم عليهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وبهذه القيم الروحية فتح الإسلام آفاقاً واسعة أثرت اللغة العربية شعرها ونثرها ثراءً نفاخر به نحن العرب أمس واليوم وغداً .

ورافد ثان من روافد الإسلام التي أغنت اللغة العربية شعراً ونثراً وقيمه العقلية ، فقد اتجه إلى العقل كطريق للإيمان بالتفكير والنظر والإقتناع ، ودعا إلى العلم ليسبر جنباً إلى جنب مع الروحانيات وليكون طريقاً لمعرفة الله ، ومن ثم فالعلماء هم الذين يعرفون الله حق المعرفة فيخشونه حق خشيته .

وبدّل الإسلام من قيم الجاهليين الاجتماعية ومنحهم قيمة أخرى تجعل من خوفهم أمناً ، ومن شقاقهم ألفة وتعاوناً ، ومن عدايتهم براً وتعاطفاً . قيم تسودها الأخوة والمساواة لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وأكرم المساكين فيها عند الله أكثرهم تقوى ورعاية لحدوده وتعاليمه . قيم تجعل منهم أمة مثالية في علاقاتهم الفردية والأسرية وفي محيط المجتمع .

ومحا الإسلام كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم الجاهلية التي لا تتفق مع النظام المستقر الذي أرسى قواعده الإسلام وهو نظام الأمة والدولة . فأخذ يحارب القبيلة والانتماء إليها حتى لا يظل العرب متنازعين مفككين ، وأحل محلها فكرة الانتماء إلى « الأمة » التي يتحكم فيها سلطان الدين ويعلو على سلطان القبيلة ، ويقول الله سبحانه وتعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وأخذ القانون الإلهي والأحكام الشرعية محل الأحكام القبلية وشعوذة الكاهن ،

وتنتقل الولاية على الفرد من القبيلة إلى الأمة والدولة ، فهي التي تعاقب المعتدى وتقتص من المذنب سواء أكان معتدياً على حق من حقوق الفرد أو الجماعة أو بحق من حقوق الله . وحارب الإسلام من قيسهم الاجتماعية ما لا تتفق مع العقل أو العدالة الاجتماعية ، كجنون التفاخر بالأنساب ، والغارات للسلب والنهب ، والمعاملة بالربا الفاحش ، ووأد البنات خوف العار أو الفقر ، وشرب الخمر والدعارة ، والأخذ بالثأر وحرمان المرأة من الميراث وإهدار حقوقها المدنية والأسرية . وفي كل ذلك كان يهدف إلى سعادة الفرد والأسرة في نطاق المجتمع المحلي وعلى مستوى الأداة الإسلامية ليتحقق قول الله فيها « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ولأن الإسلام دين ودنيا وعبادة وعمل جاء للبشر على يد بشر ، فقد دعا إلى التعايش السلمى وإلى السلام فى محيط المجتمع الإسلامى والعالمى ، فلم يدع إلى قتال إلا للدفاع عن الوطن أو الدين « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . وفى نطاق العقيدة أحترم حرية الإنسان فى اختيار الدين الذى يعتنق بعد أن تبين الرشد من الغى فلا إكراه فى الدين .

ولأن الإسلام دين المثالية فى المعاملة والمعاشرة والتعامل بين الناس فقد عدل جوانب كثيرة من الأخلاق الجاهلية وصفاتها ، فرفض أن يكون الاندفاع إلى الشر خلق المسلمين كما يصنعهم قريظ بن أنيث :

قوم إذا الشر أبدى ناجزيه لهم طاروا إليه زرافات ووحداناً
وأي أن يكون من صفاتهم الاعتداء والظلم كما يفخر بذلك عمرو بن كلثوم فى قوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عايها ونبطش حين نبطش قمارينا
بغاة ظالمين وما ظالمنا واكتنا سنبداً ظالمينا

أو كما يقول زهير فى حصين بن ضمضم :

جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً ، وإن لا يبد بالظلم يظلم
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وبدل الإسلام صورة المثل الأعلى للإنسان من الطاغية الباغى الذى يظلم ويبطش بالناس ابتداء إلى ذلك الذى يبدوهم بالحسن ، ويرد الإساءة بالمغفرة « ادفع بالتي

هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »، ومن المندفع الأحمق الذى يطير إلى الشر زرافات ووحداً إلى من يكظم غيظه ويعفو ويغفر « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »، ومن المتكبر الذى يصعرخده للناس صلفاً وتغطرساً إلى المسلم الذى يمشى على الأرض هوناً « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »، والمتواضع فى غير ضعف « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »، والذى يعفو عند المقدرة عن من ظلمه « وجزاء سيئة سيئة مثلهما من عفا وأصلح فأجبه على الله، وعدل من مقاييس الشجاعة فلم تعد فى الاندفاع إلى القتال لمجرد قيل الكماه ألا أين المحامونا، بل أصبحت الشجاعة عنده فى الاحتكام إلى شريعته بين المتقاتلين « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ». ولم تعد مقاييس الأخوة أن يهرعوا إلى القتال معه دون تفكير وتبصر :

لا يسألون أحاهم حين ينسديهم فى النائبات على ما قال برهناً

ولكن مقياس الأخوة صار فى الإسلام قول الله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعالمكم ترحمون » ، وقوله سبحانه وتعالى : « أشداء على الكفار رحاء بينهم »، وقوله سبحانه « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ». ومن ثم كان ظهور الإسلام هو النقطة التى بدأ منها مجد العرب سواء أكان مجداً أدبياً أم مجداً سياسياً أم اجتماعياً ، فقد تغير به المجتمع العربى وبدأ به طوراً جديداً مغايراً كل المغايرة للطور الجاهلى الذى سبقه سواء فى نزاعاته وأوضاعه ونظمه أو غاياته من الحياة .

والركن الرئيسى الذى قامت عليه الدعوة الإسلامية هو تنظيم الشؤون الدينية والدنيوية معاً للبشر عامة ، ولم تقتصر الدعوة على واحدة دون أخرى ، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس جميعاً ليصلح ما بينهم من علاقات وصلات ، كى يعيشوا حياة آمنة عادلة منظمة ، ويعلمهم فى نفس الوقت شعائر دينية قوامها التوحيد والعبادة ، لتصفو أرواحهم وتهذب نفوسهم وتعمر بالإيمان بالله انتظاراً للدار الآخرة . وهذا معناه أن الإسلام كان ديناً ودنياً ، مسجداً ودولة ، وبمعنى آخر كان

يجمع بين الساطنتين الروحية والزمنية . ومهما يختلف المستشرقون في هذا الجانب الثاني فهو عقيدة دينية أم عمل مدني فإن الواقع يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه كانوا ينهضون بالجانبيين معاً دون أن يفرقوا بينهما .

والنظام الذي استحدثه الإسلام ، وهو نظام الخلافة ، كان وليد الظروف التي نشأت إثر ظهور الإسلام . ومعنى ذلك أن الرسول الكريم كان ينهض بتوحيد القبائل العربية تحت لواء الدين أولاً والسياسة ثانياً .

أثر القرآن في الأدب :

كان للانقلاب الديني بالإسلام الذي مس حياة العرب من جميع وجوهها العامة والخاصة ، والذي غير الكثير من القيم الجاهلية روحية كانت أو عقلية أو اجتماعية أو سياسية ، والذي بدل من أخلاق الفرد ، وعدل من مقاييس المثل الأعلى للإنسان ، كان لهذا الانقلاب أثر كبير في الحياة الأدبية أدباً وأدباء . وكان كل تغيير أو تبديل أو تعديل رافداً يصب في بحيرة الأدب فيغنيها بمعانيه الجديدة وقيمه الممننة فترداد عذوبة وثراء .

ولئن كان الإسلام بقيمه وتعاليمه قد بعث في الأدب العربي الحياة من جديد واستنقذه من الوهدة التي كاد يتردى فيها ، فإن القرآن الكريم قد ارتفع باللغة العربية فجعلها تسمو إلى الغاية . ذلك أن القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لنزوله قد أثار في العرب حركة أدبية وفكرية معاً : ودعاهم إلى الالتفات إلى ما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان ، وإلى ما احتواه من القيم والتعريف بالأديان ، فعلقت به الأفئدة ورائت لسماعه الآذان ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمضي في قراءته حتى تخشع له القلوب وينصت إليه السامعون ، يستوى في ذلك صحابته وأنصاره والمشركون وأعداؤه . وهذا الوليد بن المغيرة - وهو من ألد خصوم الرسول - بعد أن سمع الرسول يتلو جزءاً من القرآن فروع بسماعه واستولى على مجامع قلبه يقول : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لخلوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر » . ولم يسع الجاهليون ازاءه إلا التسليم بروعة أثره في النفوس وفي العقول معاً . واعترف بلغاؤهم وأولو الفطنة منهم بأثره فيهم وتحيروا ، فمن قائل

إنه سحر ، ومن قائل إنه قول شاعر ، وفريق ظنه أساطير الأولين اكتبها فهي
تملى عليه بكرة وأصيلا .

والحق أن القرآن ليس شعراً موزوناً ولا سجعاً مقفى ، وإنما هو نمط خاص
ونسيج وحده فصلت آياته من لدن حكيم خبير . هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير
ذلك ، فهو ليس بشعر وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره ، وهي
قيود يتصل بعضها بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة في آياته
ونسقه ، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس ، وتجد فيها كل ما يتصل بها من
الفاظ روحاً وعذوبة ، لا تغنى كلمة عن كلمة ولا مرادف محل مرادف له ، فهو نمط
باهر بل هو نمط معجز فريد في بابه لم يأت من قبله مثله ولن يأتى بعده مثابه له ؛
وأني لأحد أن يقلده « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ، « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على
عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

كان القرآن الكريم أمام العرب المثل الحى وموطن المحاكاة والتقليد فى كل
ما يريدون من مجالات القول . فقد بهرهم ببيانه المعجز وبلاغته السامية وحاولوا
بإدء الأمر تقليده ففشلوا ، ثم آثروا أن ينضوا تحت لوائه فآمنوا به واقتبسوا منه ،
وأصبح كتاب الله لهم المنبع والمصدر ، يحاكون لفظه ، ويحاولون تقليد أسلوبه ،
فأخذ بيد اللغة العربية ، شعراً ونثراً وخطابة إلى الذروة التى باعته ، ونهض بها إلى
المكانة التى احتلتها . والحق الذى لا مرأى فيه أن التطور الذى حدث للغة العربية فى
العصور الإسلامية يعود أكثره إلى القرآن الكريم وذلك لأن القرآن الكريم قمة البلاغة
ومعجزة الدين الجديده ، وهو فى نفس الوقت أثر فى جميل بلغ من الرفعة أسمى
ما يمكن أن يشه إلى أثر فى هذه اللغة ، وفوق ذلك فهو كتاب تنظيم وحشد لقوى
الأمة العربية والإسلامية ، وتشريع للعالم بأسره .

وارتفاع مستوى القرآن الجمالى من ناحية الأسلوب ، وسموه من الناحية
الفنية والمعنوية ، أراد الله أن يكون كذلك ليواجه به المبشر بالدين الجديد محمد النبى

المرسل المثل البلاغية الكبرى في عصره من الشعر الجاهلي، وسجع الكهان، وفصاحة الخطباء . فلم يلبث أصحابها حتى أقروا بالعجز أمام المعجزة من الناحيتين المعنوية واللسانية ، ومن ناحية الخلاوة والطلاوة والأسلوب . والعرب قزم أصحاب قول وذوق رقيقين بلغوا بهما الغاية ، سمعوا القرآن فأخذهم بهمائه ، وتدبروا معانيه فأدهشهم ما بين دفتيه من شريعة كاملة تحوى الصحيح من الشرائع السابقة وتكمّلها لتبقى مع الزمن صالحة لكل أمة وكل عصر .

وفي قول عبد القاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز » (١) ما يكشف عن جانب من بلاغة القرآن وإعجازه ، ففى رأيه أن القرآن معجز بنفسه ، وتكمن بلاغته فى نظمه على هذا الأسلوب الذى نزل به ، لافى ألفاظه وحدها منفردة عن هذا النظم الذى جاء به ، ولا فى عبارته فقط تلك التى جاءت على ضرب من الوزن يعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله . ولا يكفى - فى رأيه - لكى تقف على بلاغة القرآن أن تعرف معرفة إجمالية أن نظمه يفوق نظم الآخرين ، وتأليفه يمتاز عن تأليف المؤلفين ، ونسجه يسمو نسج البغاء ، وصياغته ترتفع عن صياغة الفحول من الأدباء . هذه المعرفة الإجمالية فى رأى عبد القاهر لا تكفى للوقوف على سر إعجاز القرآن ، وكذلك لا يكفى المعرفة بالفصاحة أن تصفها وصفاً مجملًا أو تقول فيها قولاً "مرسلاً" ، بل لا تكون فى معرفتها فى شىء حتى تفصل القول ، وتضع يدك على الخصائص التى تكون من نظم الكلام ، وتكون معرفتك بها معرفة الصانع الحاذق الذى يعرف كل خيط فى النسيج ، وكل أجرة من الأجر الذى فى البناء البديع .

وهذه المعرفة تحتاج أناة وصبراً ، لأن ذوى العقول الراجحة يعرفون بها حجة الله ، وهى تفسير للعلم بتوضيح المزايا والخصائص ومن أين كثرت كثرة عظيمة ، واتسعت بحيث تجاوزت حدود البشرية ، وكيف تؤدى الألفاظ المحصورة والكلمات المحدودة إذا جاء بعضها فى أثر بعض معانى لا يمكن لبشر أن يصل إليها وحده ، ولطائف لا يحصرها العد ولا ينشئ إليها الإنسان (٢) .

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٩ - ٣٣ ، ٢٩٤ - ٢٩٩

(٢) انظر المصدر السابق ص ٢١ - ٣٣

والحق أننا إذا حاولنا تعديد مظاهر إعجاز القرآن أو مآثره على اللغة والأدب
فلن نفى كتاب الله حقه . ويكفى أنه المعجزة التي أخرست ألسنة بلغاء العرب
وفصحائهم في مجال التحدى . ونشرت أضواءها على مجالات التعبير لمن آمن وقرأ
وانتفع ، فالقرآن سريعاً ما علت كالمته لأن حكمة الله هي العليا دائماً ، وسرعان
ما انتشر بين الأمصار المفتوحة ، فاقتبس الناس من تعبيراته وكلماته ونسقه ومن آياته
في ضروب الخطابة والكتابة وحتى الشعر . كل ذلك هياً لثورة التعبير أو دفعة
الازدهار في تاريخ اللغة العربية .

(ب) موقف الاسلام من الشعر

أشرق الإسلام بنوره على العقول الجاهلية فأخذت الظلمة الكامنة فيها تتبدد شيئاً فشيئاً ، واستمع العرب إلى آيات الذكر الحكيم فتملك منهم السمع والفؤاد . وحمل محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس رسالة الإسلام ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وينظم شئون البشر الدينية والدنيوية ، ويرسم للإنسان مناهج السلوك في معاملاته كفرد وكلبنة في مجتمع متماسك البنيان ، ويبين الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة دون لبس أو إبهام . كذلك كان الدين الجديد وتلك تعاليمه ، من اتبعها فقد اهتدى ، ومن عصاها أو تجنبها فقد ضل وغوى .

وعلى هدى الأسس الإسلامية ، بدأت المقاييس الدينية تصبح مناط الحكم على كل أمور الحياة وظواهرها . « والأدب » يعمق فهم الحياة ، « والشعر » يرسم للناس عالم الرؤية الخارجى ويطلعهم على العالم الداخلى للفكر والشعور . فالشعر يرتاد بنا الحياة ويخلق بيننا وبينها علاقات جديدة من الفهم والمعرفة ؛ وتلك هى الغاية التى تسعى إليها الإنسانية دائماً . وإذا ارتاد بنا الشعر الحياة الإسلامية الجديدة ، واستمد روحه منها ، وخلق بيننا وبينها علاقات قائمة على الفهم والمعرفة ، فلا بد أن يكون روح الحياة ومنبع هذه العلاقات وأساس المعرفة والفهم هو الاسلام دين الحياة الجديد .

وإذا كان الشعر بهذه المثابة وعلى هذا النمط ، يستمد من الحياة الإسلامية مثله وقيمه فهو من الشعر فى الذروة ، فى حكم الدين الجديد . أما إذا خالف هذا المنهج فمثله مثل كل الظواهر التى تخالف الدين كالمعاصى التى ترتكب . تلك هى النظرة التى نظر الإسلام بها إلى الشعر ، فمقياس الدين وحده هو المقياس الجديد الذى نقاس به أمور الحياة . فالأفكار والمعاني التى ارتضاها الرسول وصحابته من الشعراء المسلمين هى الأفكار والاتجاهات التى تلائم روح الدين الجديد سواء كانت روحاً دينية أم دنيوية ، والدين والدنيا يسيران فى طريق الإسلام إلى غاية واحدة هى صلاح العقيدة وصلاح الفرد والمجتمع ليسعد الناس فى الدنيا والآخرة .

ومن هنا نجد أن الإسلام وتنف من الشعر موقفاً طبيعياً واضحاً كل الوضوح ، فالشعر وهو الفن الرفيع الذى يعد من مقومات الحياة لم يحظره الإسلام ، أو يقف منه موقف العداء . وما كان للنبي الذى يقول : « إن من الشعر لحكمة » ، والذى يعرف التأثير الكبير للشعر فى وجدان المجتمع العربى ، وعلى بينه من المترلة الرفيقة التى ينهض بها الشعر كوسيلة لإعلام للدعوة الجديدة : ما كان له إلا أن يهتم بتلك الملكة الفنية التى اشتهر بها قومه وأحبوها ، ويشجع ذلك الفن الذى نبغ فيه العرب وهو الخبير بتأثيره فى نفوسهم والعالم بمدى فائدته فى نشر الإسلام .

ولقد عاش العرب سنين طويلة والأدب فبهم الأوحى : ووسيلتهم التى لانعرف أنهم كانوا يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم ، ومن ثم جاءت معجزة الإسلام معجزة بيانية ، حى « القرآن » ، فكانت هذه المعجزة آية تقدير لمكان البيان فيهم ومنزلته عندهم بقدر ما كانت شاهداً على أن الإسلام لم يجرى ليعطل البيان ، بل أقر وظيفته فى المجتمع ، وأبقى لذويه ما كان لهم من قديم . من شرف القيادة الوجدانية والتكلم بلسان الجماعة (١) .

ولو أننا نظرنا إلى الأمر نظرة موضوعية وحاولنا بالاستقصاء معرفة مكانة الشعر فى ظل الإسلام ، وذلك باستعراض كتب الأدب والتاريخ التى أرخت وكتبت عن صدر الإسلام ، لوجدناها تزخر بالكثير من الشعر الذى قيل فى تلك الفترة ، يعبر عن كل حدث من أحداث العصر منذ ظهرت الدعوة المحمدية ، ويصور الحياة فيها بدقة وفى صادق ، ولوجدنا فيها أن الشعر قد انقسم على نفسه تبعاً لانقسام العرب على أنفسهم إزاء الدعوة الإسلامية ، فريق وقف مع الرسول يدافع عن دين الحق بشعره ويهاجم أعداء الإسلام من الوثنيين المشركين ، وفريق ظال فى ضلالة القديم ينافح بلسانه عن الأوثان ويصد عن سبيل الله .

وواكب الشعر التاريخ والأحداث ، ورافق المعارك والوفود فى حياة الرسول وبعد وفاته . ففى يوم السقيفة كان شاهداً يسجل ، وفى محنة الردة كان سلاحاً مع

(١) انظر : قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر للدكتورة عائشة عبد الرحمن القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٣

المسالمين المخلصين ومع المرتدين الظالمين. وفي عهد عمر كان الشعر يرافق الجيوش التي خرجت تحمل مشاعل الإسلام ، يحمهم ويسبث فيهم القوة ، ويغنى لهم على أوتار الإيمان فيشمنون راحة الحنة تحت ظلال السيوف وهم ينشدون شعر الجهاد . وحين حلت الفتنة بين المسالمين في عهد عثمان سجل الشعراء آراء كل فريق . ومنذ أن تصدع الرأب بقتل عثمان وانشقت الأمة الإسلامية بين على ومعاوية ثم بينهما وبين الحاراج ، كان الشعر لكل ذلك بالمرصاد وكأنه عين التاريخ يشهد الأحداث ويعيشها ويمرر عنها ، ولكل فريق شعراؤه يدافعون عن رأيه بالحجة ويهاجمون من وقف ضده ، ولكل وجهة هو موليا .

من ذلك كله نجد أن الشعر لم يتوقف لحظة من الزمن في الإسلام ، بل ظل يسير مع الأحداث لا يتخلف عنها . ولعل من يقرأ سيرة ابن هشام ، والطبري ، والأغاني ، والإصابة في تمييز الصحابة ، وأسد الغابة في معرفة أحوال الصحابة ، والمغضليات التي جمعها المفضل الضبي ، والأصمعيات لعبد الملك الأصمعي ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وغير ذلك كثير وكثير من أمهات الكتب التي حملت بين طياتها شعر هذه الفترة - لعل من يقرأ ذلك يتبين أن الشعر لم يتوقف ولم يضعف في تلك الفترة ، بل يستقر في نفسه أن راية الشعر ظلت مرفوعة يرفرف مع راية الإسلام .

وكان التطور الحام الذي حدث للشعر بعد البعثة المحمدية هو أن الإسلام طلب من المسلمين جميعاً ، ومنهم الشعراء ، أن يكونوا ملتزمين بالقيم الإسلامية التي يدين بها المجتمع المسلم ، وعمل على توجيه الملكات الفنية بنمائها توجيهاً جديداً يبعد بها عن الضلال القديم ، وعما يهيم به الفنانون من الغواية ، فيسرفون في مجالات الشر والفوضى والعرب . ويدعوهم إلى القيم التي تقود إلى خير الفرد والمجتمع والبشرية في الدنيا والآخرة . وأراد للشاعر ألا يكون شاعر قبيلة بل شاعر أمة تدين بالإسلام فمنحه ذاتية الشاعر ، ولم يفرض عليه قيوداً إلا من داخل ذاته المؤمنة ومن وازع قلبه المسلم فلم يمد كشاعر القبيلة يدافع عنها بالحق وبالباطل رضى أو كره ، ولكنه أصبح غير محدود بنطاق أسرته وقبيلته ، بل يدور في رحاب الأمة ، وليس عليه من سلطان إلا سلطان إيمانه ودينه .

والحق الذي لا مرأى فيه أن الإسلام لم يمنع المسلمين أن يردوا حياض الشعر وأن ينظّمه ، لأن قول الشعر والاستماع إليه وتقديره والإعجاب به يجرى من العرب مجرى الدم من العروق ، والنبي العربي قد استمع إليه وأعجب به وقدره في نطاق القيم الإسلامية ، وروى عنه عليه السلام أنه قال : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » وقوله : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » . وفي قصة كعب بن زهير حين بلغه إهدار النبي دمه بعد أن هجاه وضاعت عليه الأرض بما رحبت فقدم مثلثاً بعمامة إلى المدينة وبايع الرسول على الإسلام ثم أنشد قصيدته :

بانث سعاد قلبي اليوم متبول متمم لثراها لم يفد مكبول
والتي يقول فيها :

نبدت أن رسول الله أوعى مني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هذاك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت في الأقاويل
ثم يقول :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول
فقال الرسول : « من سيوف الله » ثم رمى إليه برده التي كانت عليه ، وهي التي بذل فيها معاوية لكعب عشرة آلاف فقال كعب ما كنت لأثر بثوب رسول الله أحداً (١) خير دليل على تقدير الرسول للشعر .
وحين ينشده النابغة الجعدي فيقول :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالحجرة نيراً
بلغنا السماء بمجدنا وجدودنا وإنا لفرجو فوق ذلك مظهرأ
فيقول له المصطفى : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فيقول النابغة : إلى الجنة يا رسول الله .
فيعجب النبي بشعره وبروحه الإسلامية فيقول : « إلى الجنة إن شاء الله » . ثم إذا أنشده :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذر تحمى صفوه أن يكسدا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد القوم أصدر
فيرداد إعجاب الرسول به لأنه أخذ من القرآن معناه في قوله : «خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . ويدعو له بقوله لا يفض الله فاك (١) .

وفي سماع الرسول الشعر في مسجده وعلى منبره ، ودعوته شعراء ليردوا
على شعراء الوفود من القبائل ما يدل على تقدير الرسول لهذا الفن الإنساني الجميل
في أمته ، شريطة أن يكون مائزاً بتعاليم الإسلام الخفيف .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم على بيئة من تأثير الشعر في نفوس العرب
فاتخذ سلاحاً من أمضى الأسلحة ينال به من أعدائه المشركين . وحين توالى هجاء
عبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب وأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب
وعمر بن العاص - وكانوا من المشركين وقتذاك - للرسول الأمين وصحبه
قال قائل من المسلمين لعلي بن أبي طالب أجمع عنا قوم الذين يهجوننا ، فقال :
إن أذن لي النبي فعات ، فقاتلوا يارسول الله أئذن له ، فقال الرسول الأمين : إن
علياً ليس هناك ، أو ليس عنده ما يراد في ذلك منه ، ثم قال صاوات الله عليه :
ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان :
أنا لها ، فقال له الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو
ابن عمي ؟ فقال : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين . وانضم إليه في
المعارك الشعرية كعب بن مالك الخزرجي وعبد الله بن رواحة الخزرجي ، وقد
قال فيهم الرسول الكريم : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل » .
وكان تعبئة الشعراء في صفوف المساحين تعبئة وجدانية تواجه خطر الشعر في
المعركة لأن الرسول القائد يدرك أثره العميق في نفوس الفريقين المتعارضين .

ثم يأتي بعد ذلك كله من يزعم أن الإسلام وقف من الشعر موقف العداء
بمهاجمة القرآن والرسول الكريم الشعر والشعراء ، وفريق آخر يدعى أن العرب

تشاغات عن الشعر في صدر الإسلام ولحيت عنه ، ولم يعودوا يشغلون به بعد أن ملأ القرآن والجهاد عليهم حياتهم .

والذين زعموا أن الإسلام وقف من الشعر موقف العداء . أو ادعوا أنه حاجبه واستصغر شأنه ، أو أن الشعر ضعف بدخوله في نطاق الإسلام . أو أن العرب تشاغات ولحيت عنه بالآلة آن والجهاد قد استندوا في زعمهم إلى أمور منها :

أولاً : مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظالموا » (الشعراء آية ٢٢٤) . والحق أن الآية الكريمة تحمل الرد على هؤلاء المدعين ، لأنها في إطار الالتزام بالقيم الإسلامية حاجت نوعين من الشعراء : النوع الأول . الشعراء المشركون ، ومعروف أن هذا الصنف من الشعراء كانوا يندفعون بحكم حاة الشرك والضلال إلى كل ما يخالف الإسلام ، وكانوا حرباً على الرسول ودعوته ، يهجونّه ويشيطون من عزيمته . ويؤذونه بالسنتهم وقبح هجائهم . والقريق الثاني : الشعراء الذين دخلوا الإسلام شكلاً ومظهراً بالسنتهم . لكنهم ، في الواقع والحق ، ضالون ومضلون ، كالمناقضين ، لم يؤمنوا بقلوبهم ولم يعملوا الصالحات ولم يذكروا الله سرّاً وعلانية ولم ينتصروا للحق والإسلام ويفقوا للدفاع عنه في فترة نشر الدعوة والدفاع عنها .

وذلك ما فهمه الرسول الكريم وصحابته من الآية الكريمة وهم خير من فهمه الله آن وطبق شرائعه . ومن ثم اتخذ الرسول الكريم شعراء يعبئون الطاقة عند المسلمين ، ويدافعون عن الإسلام بالسنتهم ويقولون وروح القدس معهم . وكان عليه السلام يعجب بمراثي النساء لأخيها صخر ، ويدعو للنايبة الجعدى بألا يغض الله فاه ، ومن توعدده الرسول الكريم وأدبر دمه يتخذ من الشعر وسيلة استرضاء . للفقو عنه فيفقو الرسول العربي بعد سماع الشعر ، ويزيد حياءً وتطفلاً فيخلع عليه أفضل جائزة ، وهي برده المباركة . وغير ذلك كثير من أعمال الرسول وصحابته التي تدل دلالة قاطعة على أن الإسلام لم يقف من الشعر موقف العداء .

ويقول أبو زيد : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر اتقوله عز وجل : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ولكن كان يعجبه (١) .

ويروى أن عمر بن الخطاب مر بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر في مسجد الرسول فقال : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير على ذلك . فقال : عمر ، صدقت (٢) . وكان أبو السائب المخزومي وله ماله من فضل في الدين والعلم يقول : أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرجة كل يوم مراراً (٣) .

ثانياً : مهاجمة الرسول الكريم للشعر في قوله : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً » . والحقيقة المقررة أن الحديث الشريف يفسر القرآن ويوضح ما فيه من قيم وعبادات ، والحديث بهذه الصفة إنما ينصب ذمه ومهاجمته على الشعر المجانب الحق والمتنافي مع تعاليم الدين وغير الملتزم بالقيم الإسلامية . ويؤكد ذلك رواية أخرى للحديث جاءت على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها تقول فيها « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً هجيت به » .

ولو أننا أخذنا الآية والحديث بالفهم السطحي الذي اتخذه الزاعمون لكان هناك تناقض بين ما يقوله الله سبحانه وتعالى والرسول الكريم وبين ما يفعله الرسول وصحابته . وحاشا للصادق الأمين وصحابته الأكرمين أن يقولوا ما لا يفعلون ، أو أن يفعلوا ما هاجمه الدين .

ثالثاً : لم يؤثر عن الرسول الكريم أنه تعلم الشعر قبل البعثة أو بعدها ، بل نهي عن قوله .

ثم جاءت آيات كثيرة تباعدنا بين الرسول والشاعرية وما بين القرآن والشعر ، وذلك كله يدل على مهابة الشعر والشعراء في نظر الإسلام ومعاداتهم من الآيات الكريمة

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٢١ (المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٢٦) .

(٢) العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ١٠

(٣) المصدر السابق ص ١٢ . والرجة : الموضع الذي تقام فيه الحدود على

المدنيين .

قوله تعالى «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» (يس ٩٦) .
 « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل
 الأولون » (الأنبياء ٥) . « ويقولون أثنا اتاركوا آلتنا الشاعر مجنون » (الصفات ٣٦) .
 « أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون . قل تتربصوا فإنني معكم من المتربصين .
 أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » (الطور
 ٣٠ — ٣٤) . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما يؤمنون »
 (الحاقة ٢٩ — ٣٠) .

ولعلنا لو تدبرنا الحكمة الإلهية في حفظ الرسول من نظم الشعر قبل البعثة
 وبعدها لازددا إيماناً بأن الرسول الكريم كان يؤمهاه الله لحمل الرسالة في مجتمع
 عربي يقدر الشعر والبيان . والمعجزة الكبرى للرسول كانت معجزة البيان . ولو
 أن الرسول قال الشعر لاختلط مع مرور الأيام بالقرآن الكريم ، ولالتبس شعره والقرآن
 على الناس ، ولدخل في القرآن ما ليس فيه أو أخرج منه ما جاء على وزن الشعر .
 ولكن صرف الله له عنه وإصرار الرسول وامتناعه حتى عن رواية الشعر أو إنشاده
 وضع حداً فاصلاً لما كان يمكن أن يحدث من اللبس والزيغ ، كما حدث في الحديث
 الشريف . ولعلنا ندرك أن هناك آيات شريفة ينطبق عليها بعض الأوزان
 الشعرية التي قال على وزنها الشعراء . ومن ذلك قوله جل شأنه وحاشا أن يكون خطأ
 من الشعر : « لن تناووا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (الزمل) . « من تركني فإني يتركني
 لنفسه » (الحفيف) . ولكن ذلك الكلام الموزون قد يأتي في كلام الناس العادي .
 والشعر هو ما قصده الشاعر أن يكون شعراً .

وسبب آخر قد يكون واضحاً موقف الرسول من امتناعه عن قول الشعر ، وذلك
 أنه لو قاله لوجب أن يبرز فيه ، ولا يمكن أن يبرز فيه — في نظر أهل عصره الذين
 يدعوههم إلى الإسلام — إلا إذا سار على نهج فحولهم من الشعراء ، فيقول في جميع
 الأغراض من هجاء مقذع ، وفخر كاذب ، وتشبيب فاضح ، وخمريات وهيام في
 كل واحد من الضلالة ، وما تلك سبيل الهداية ولا طريق النبوة . وأني لنبي أن يجمع
 بين مقاصد النبوة من الإيمان الحق والفضيلة والمثل الأعلى في السلوك والخلق والحق
 وبين ما يهيم به الشعراء في وادي الغواية .

ولو كان الرسول شاعراً لنسب العرب فضيلة حجته البالغة وجوامع كلامه إلى تأثير الشعر ، ومن ناحية أخرى سوف ينسبون بلاغة القرآن وإعجازه البياني إلى ما يظنه أدل ذلك العصر من همس الشياطين في أذان الشعراء ، أو من وحى الجنى الذى يرافق كل شاعر ، كما يقول أحدهم :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر .

والحق أن الآيات الكريمة إنما تؤكد نفى الشاعرية عن الرسول حتى لا يظن أن رسالته نوع من الرؤى والخيالات ، ودفعاً لما قد يظن أيضاً من أن القرآن شعر من نوع جديد جاء على لسان شاعر .

رابعاً : زجر عمر بن الخطاب حسان بن ثابت حين سمعه ينشد الشعر في مسجد الرسول ، وكانت الخطابة والكتابة تحدثان في المسجد دون حرج . ولو أننا عرفنا السبب الذى من أجله زجر عمر حسان لتأكد لنا اهتمام المسلمين بالشعر ومدى سلطانه عليهم . فقد كان حسان ينشد مناقضات الأنصار ومشركى قريش قبل الإسلام ، فزجره عمر حتى لا تهيج الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، ومن ثم كان زجر عمر حسان ، لا لأنه ينشد الشعر ، فقد كان ينشد من هو خير منه في المسجد ، ولكن زجره كان لثوعية الشعر الذى ينشده ، وهو شعر يضر بالمسلمين . ولو اطلعنا على القصة بكاملها^(١) لوجدنا أنها تنتهى بقول عمر للمسلمين من الأنصار « إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً لانتضاعن عنكم ، فأما إذ أبوا فأشدوه واحفظوه » . وعمر نفسه الذى يزجر حسان لموقف من المواقف هو نفسه الذى يتحدث إلى وفود القبائل عن شعرائهم ، ويروى الآيات من شعرهم رواية الحافظ الناقد . بل ربما قضى الليل ساهراً حتى التفجر يصغى إلى الشعر ثم يطلب تلاوة القرآن . وكان يبعث إلى بعض عماله ليسأل عن الشعراء المخضرمين وما أحدثوه من الشعر في الإسلام^(٢) . وكان يسأل القبائل عن شعرائهم في الجاهلية ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول : مر من قبائك يتعلم الشعر ، فإنه يدل على معاني الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب .^(٣)

(١) الأغاني جزء ٢٠ ص ١٨٩ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٦٠

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣٠

(٣) العمدة ج ١ ص ١٠

خامساً : انصرف ليبد بن ربيعة عن قول الشعر بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتاً واحداً :
الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى كسأني من الإسلام سربالا
ومن قائل بل دو قوله :

ما عاتب المرء الكريم نفسه والمرء يصاحبه الجليس الصالح
ويقال إن عمر بعث إلى واليه على الكوفة أن يسأل ليبدأ عما استحدثه في الإسلام من
الشعر فتلا ليبد سورة البقرة وقال : أبدلني الله دذه في الإسلام خيراً منها ^(١) .
والواقع أننا لو نظرنا إلى ديوان ليبد ^(٢) لوجدنا فيه شعراً كثيراً قاله في الإسلام .
ولوجدنا قراءته للقرآن الكريم قد دذبت من لفظه . وأدخلت عليه كثيراً من الطلاوة
ولوجدنا للمعاني الإسلامية صدى في شعره والروح الإسلامية ما ثلة في تضاعيف
أبياته التي قالها بعد إسلامه .

سادساً : قال ابن خلدون في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما
شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أساليب القرآن ونظمه ،
فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم أستقر ذلك
وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى في تحریم الشعر وخطره . وسمعه النبي
صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه . فرجعوا حيثنذ إلى دينهم منه ^(٣) .

وأو أننا نظرنا إلى كلام ابن خلدون نظرة مجردة لوجدناه متناقضاً ، ينقض آخره
أوله ، وإلا فكيف نوفق بين أنهم انصرفوا عن الشعر وأخرسوا عن نظمهم وبين
سماع الرسول الكريم له وإثابته عليه ؟ ومن ناحية أخرى كيف نفهم معنى انصرافهم
عن الشعر وخرسهم عنه مع أن التاريخ يثبت أنهم لم يتوقفوا عن إنشاده ، وقد اتخذ
الرسول الكريم لنفسه شعراء يدافعون عن الإسلام ويدعون له ، وكانت الوفود
تأتى إليه ومعها خطباؤها وشعراؤها فيرد عليهم خطباء الرسول وشعراؤه . ومن
ناحية ثالثة كان هناك شعراء معسكر المعارضة للإسلام من المشركين وفيهم الشعراء
الذين هاجموا الإسلام ورسوله الكريم .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣٠

(٢) تحقيق احسان عباس .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧

أما إذا نظرنا إلى ما قاله ابن خلدون في ضوء تفسيره للظواهر الاجتماعية - وهو من شيء علم الاجتماع - فلعله كان ينظر إلى الأمر نظرتة إلى ظاهرة اجتماعية، هي أن الجليد المبرر يستأثر بالانتباه زمناً ويأخذ بالألباب حيناً حتى يتعوده الناس فيأخذ به من يأخذ ويتركه من شاء ، وهي ظاهرة نراها كل يوم حين يظهر أمر مستحدث بيننا ، والأمثلة كثيرة لاحتاج إلى توضيح .

سابعاً : قول ابن سلام يردد كلام عمر ، كان الشعر عام قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، ثم يزيد عليه فجاء الإسلام وتشاغلنا عن الشعر العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس الروم ، ولت العرب عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه كثير (١) .

ولعلنا لو أخذنا قول ابن سلام على لفظه لوجدناه مخالفاً للواقع الذي تثبته كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازي التي تحمل بين طياتها شعراً كثيراً قيل في صدر الإسلام ، ولعله من فضول القول أن تثبت بعد ما تقدم كيف كان الشعر حركة دائبة لا يتوقف في حياة الرسول وبعده . ولو تصفحنا كتب السير والمغازي لوجدنا الجهاد نفسه كان داعية لقول الشعر بين المسلمين . لكن الحقيقة أن ابن سلام لم يأت بقوله السابق وهدفه الأساسي إثبات قلة الشعر أو اختفائه في صدر الإسلام ، بل أراد أن يدل على أن الشعر العربي القديم قد ضاع أكثره وذهب مع ريح الصحراء ، وطوته يد الزمان ، وذلك لأنهم حفظوه عن طريق الرواية ولم يدونوه ، والرواية من شأنها أن تستعط الكثير من الشعر بفعل النسيان أو انقراض الطبقة الحافظة ، ولكنه أخطأ في التعبير وتزيد فيه .

ونفس ابن سلام يروي في طبقاته أن عبد الله بن رواحة قال : مررت بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في نفر من أصحابه فأضرب القوم : يا عبد الله بن رواحة ، فعرفت أن رسول الله دعاني ، فانطلقت إليه مسرعاً ، فسامت ، فقال : هاهنا ، فجلست بين يديه ، فقال كأنه يتعجب من شعري : كيف تقول

الشعر إذا قلت ؟ قلت أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . فهل يعد ذلك تشاغلا عن الشعر ، أم أنه تقدير له كوسيلة للدعاية والدفاع عن الإسلام ؟ وابن سلام نفسه يروى قصة كعب بن زهير وإهدار النبي دمه لأنه هجاه بشعره ثم مجيئه متنكراً إلى الرسول وتأمين النبي له ، ثم يروى قصيدته « بانث سعاد » وفيها قدم كعب اعتذاره للرسول الكريم وطلب منه العفو ، وتعرض للمهاجرين يملحهم في قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهتد من سيوف الله مساول
في عصبة من قریش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
لا يقع الطعن إلا في نحرهم ومالهم عن حياض المسوت تهليل

وحينئذ نظر الرسول الكريم إلى من كان في مجاسه من المهاجرين وكأنه يستحسن ما قال فيهم ويدعوهم إلى سماعه . فإذا ما عرض كعب بالأنصار مقارناً إياهم بالمهاجرين وجعل من نصيب الأنصار التلميح بالخبث والقصر لغلاظتهم عليه ورغبتهم في القصاص منه لتعرضه لرسول الله بالأذى والهجاء حين قال (١) :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنايل
حينئذ غضب الأنصار وتألموا وأنكر عليه المهاجرون هذا التلميح ، وقالوا : لم نمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يسر عن الأنصار غضبهم ولم ينل رضى المهاجرين عنه إلا حين مدح الأنصار بقصيدته التي قال فيها :

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالح الأنصار (٢)
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهيساج وسطوة الجبار (٣)

(١) الانكاس جمع نكس وهو الضعيف الذليل . كشف : جمع اكشف وهو الذى ينكشف في القتال ويهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبار . معازيل : جمع معزال . وهو الذى ينزل في الحرب .

(٢) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٣) القصيدة والقصة في طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها . والشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١/ ٨٦

ولو أن العرب حيناً قد تشاغلوا عن الشعر كما يقول ابن سلام ، ولقى المسلمون عن روايته بالجهاد والغزو ، وفقد الشعر نفوذه على الوجدان العربي وعواطف المسلمين ، فهل كان الرسول يهدر دم كعب من أجل شعره المهجائي ؟ وهل كان الرسول يكافئه ببردته لمذحه ؟ وهل كان الأنصار يغضبون من بيت قاله معرضاً بهم ؟

هقول
الاصح

ثامناً : يقول ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : إن الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فيه الخير ضعف ولان ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

والحق أن الداعوى الذى ادعاها ابن قتيبة من أن الشعر نكد بابه الشر دعوى غير مقبولة إلا فى عصر الجاهلية ، لأن الشعر قد عبر فى كل العصور الإسلامية وخاصة فى العصر العباسى والأموى بقوة المنطق وبصدق العقيدة وحتى من المنطلق الفلسفى والخلافات العقائدية تعبيراً خرج به من البيئة المحلية الصحراوية إلى الآفاق العالمية من حيث الفكرة والمضمون . فشعراء الخوارج والشعبة وشعراء البصرة والكوفة والشعراء السياسيون فى عصر بنى أمية ونقائضهم ، وأبو العتاهية ، وأبو العلاء والبحتري ، والشريف الرضى ، والمتنبي ، وغيرهم كثيرون وكثيرون ممن كانوا يقولون الشعر فى الخير والحق والعقيدة والمبدأ ، هل نعتبر شعرهم ضعف ولان ؟ لو نظرنا إلى أشعارهم من حيث الإطار العام للقصيدة ، لوجدناها خيراً من قصائد الشعر الجاهلى لأنها جارت العصر فهذبت من حوشيا وبدأت تسيطر عليها وحدة العاطفة . ولو نظرنا إليها من حيث المضمون ، لما اختلف اثنان فى أن القضايا التى أثارها الشعراء المسلمون أفضل بكثير من القضايا التى أثرت فى العصر الجاهلى .

ولعل ابن قتيبة قد نظر إلى حسان بن ثابت خاصة واتخذ منه فى فترة محددة مقياساً يبنى عليه قاعدة حكمه على الشعر كاه . وذلك المقياس الفردى بجانب للصواب من الناحية العلمية ، لأن الحكم لا يكون صحيحاً إلا إذا جاء نتيجة الاستقراء والاستقصاء ، وليس نتيجة حالة فردية . وحسان بن ثابت وغيره من الشعراء الذين عاصروا الجاهلية رديحاً طويلاً من الزمن ثم لحقوا بالإسلام ممن نسميهم بالخضرمين ،

لهم حكم خاص بهم ، ذلك أن الشعر لا ينبع من العقل والمنطق فيمكن تحويه وتغيره بين عشية وصباح كافتتاح المرء بفكر محدد ومنطق معين ، ولكنه نابع من الوجدان ووليد تقاليد في النسيج والنظم والأسلوب والنسق ، وذلك يحتاج وقتاً حتى يشرب الشاعر التقاليد الجديدة ويستوعب وجدانه الفكر الجديد ليصدر عنه ، ومن ثم كانت الفترة الأولى لإسلام حسان وأقرانه من الشعراء المخضرمين هي فترة التحول الوجداني ، وكان لابد أن تستوعب عواطفه وأحاسيسه الدين الجديد وقيمه ، ويمثله في قلبه ويعيش معه في وجدانه ، ويتخلص من كل تقاليد الجاهلية خاصة وأنه عاش ٦٠ سنة في الجاهلية ، ومن الصعب أن يتغير المرء حتى في عواطفه بسرعة بعد هذه السن ، ولذلك كان لابد لحسان وغيره ممن على نغمة من الشعراء المخضرمين من وقت يستوعبون فيه الحدث الجديد ، أو يتمثلون الثورة في القيم كلها في وجدانهم .

وقد يكون ما حمل ابن قتيبة والأصمعي على الحكم بأن شعر حسان لان وضعف في الإسلام هو ما نسب إلى حسان وما دخل شعره من الوضع ، فقد انتحل له شعر كثير تشيع فيه الركافة والضعف حتى درجة الهلولة . لكننا لو استعرضنا شعره الموثق الذي قاله في الإسلام وكذلك شعر من كان على شاكلته من المخضرمين ، نجد التحول في شعرهم يتجه شيئاً فشيئاً إلى أن يكون إسلامي الشكل والمضمون والتقليد . ومع ذلك فإننا نجد في شعرهم أول الإسلام قوة لا تنقل عن قوته في جاهليتهم حسب الموضوع والغرض الذي يقولون فيه ، فحسان مثلاً يقول متحدياً أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان يقول الشعر في صفوف المشركين أول الإسلام (١) :

هجوت محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعسررضي	لعرض محمد منكم وقاء
أتهجسوه ولست له بكفتاء	فشر كما لخبر كما الفــــداء

وعبد الله بن رواحه يقول مهاجماً قريشاً المشركة :

نجالد الناس عن عرض فأنامرهم	فينا النبي وفينا نزل السور
وقد علمتم بأننا ليس غالبنا	حتى من الناس إن عزوا وإن كثروا

(١) لأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : ج ٤ ص ١٧٩

يا هاشم الخبير إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غير
فثبت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا
وذلك كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد الانتصار على يهود خيبر فيقول :

قضينا من تهمة كل وتر وخير ثم أحجمنا السيوفاً^(١)

والمتصفح لديوان حسان وشعر عبد الله بن رواحه وغيرهما من الشعراء
المخضرمين في صدر الإسلام يجد المعاني الإسلامية قد أخذت تزحف على شعرهم
وتنبعث من نسيجه حتى أصبحت إسلاميه خالصة . فقصيد حسان في رثاء الرسول
الكريم ورثاء أبي بكر أو رثاء عمر ، وقول الشعراء المسلمين في حروب الردة وهم
يجهزون على المرتدين : أو قولهم وقد خرجوا للجهاد في سبيل الله يفتحون فارس
والشام ومصر وينشرون الحق والإسلام ، نجده شعراً قوياً تثبت فيه القيم الدينية
وظهرت فيه المعاني الإسلامية . ولم يعد الشر هو باب القوة في الشعر بل استبدل
به الخير والحق والإسلام فبعثت فيه القوة الحقيقية للفن الرفيع .

إذن من الظلم والخطأ البين أن نقول : إن الإسلام وقف من الشعر موقف
العداء أو أنه شغل الناس عنه ، أو أضعف سلطانه على وجدان العرب ، أو جعله يفقد
قوته من حيث أنه فن فجعله يلين ويضعف ، أو أنه وقف نشاطه .

ذلك لأنه زيادة على كل ما تقدم ، كان ينشد على كل لسان ، وساعدت
الأحداث الإسلامية على ازدهاره لا على خموله ، فقد كان هناك شعراء الدعوة
الإسلامية ، وهجاء والوثنية ، وشعراء المرتدين ، وشعراء الفتوح ، وشعراء الفتن بين
المسلمين ، وشعراء الانفصاليين والحوارج والفرق الإسلامية .

ومن ثم نجد أن الإسلام أذكى جذوة الشعر وأشعلها ، لأنه أمدّها برصيد لا ينفذ
من المعاني الجديدة والقيم الإسلامية ، وأخرج الشعر من الحسيات إلى المعنويات الفنية
التي لا حد لها من القيم الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية .

(١) باقى القصيدة فى ابن بسلام ص ١٨٤